

العنف في الملاعب بين سلطة الحشود و إجراءات الاحتواء

العنف في الملاعب ظاهرة قديمة ارتبطت بكلمة (هوليقان) في بريطانيا. الظاهرة حافلة بالمآسي، عداها لا يعترف بالحدود. إجراءات الاحتواء لا تختلف عن بقية الظواهر مثل تعاطي المخدرات، الهجرة، السيدا، أنفلونزا الطيور و العنف الإرهابي. إذ يمكن أن تتحول ظاهرة العنف في الملاعب و خارج الملاعب إلى إجماع منظم بإيعاز من جماعات فرعية تستهدف الاستقرار العام أو تخريب الممتلكات العامة و الخاصة بغرض النهب. لذا، فإن احتوائها لم يعد شأن المشرفين على الرياضة فحسب، بل يتطلب تضافر مجهودات الجميع لاحتواء الموقف بشكل يحدد الإجراءات الكفيلة بتوجيه شحنة العنف بأساليب موضوعية . توفر (سيكولوجية الحشد) إطارا نظريا لفهم ظاهرة العنف في الملاعب. حيث يشكل الكتاب المرجعي في الموضوع للباحث "قيستاف لو بون" أدبيات الموضوع من الناحية السوسولوجية.

أما حديثا، نال الموضوع اهتمامات الباحثين في علم اجتماع الانحراف حيث تعرف الانحراف بأنه "مؤشر لقطيعة نهائية لبعض الأفراد مع العادات و القوانين المألوفة في التبادل الاجتماعي.

ينظر المختصون إلى موضوع العنف في الملاعب على أنه فعل مجموعة من الأنصار و ليس المتفرجين، ليسوا غرباء على عالم الكرة، ينتمون إلى مجموعات مهيكلة يهدف العنف المعتمد إلى تحويل الأنظار من الميدان إلى المدرجات. كما تشكل فرصة التجمعات البشرية وسيطا لنقل معاناتهم و انشغالاتهم لمن يهمه الأمر "خاصة السلطة" أو من يعتقدون أنه سبب مأساتهم.

تتكون جماعة المشاغبين من عدد محدود من الأفراد، يتزعمهم قائد أو محرض على العنف يتميزون بالحضور الدائم للمقابلات سواء محليا أو مع تنقل الفريق. مثل هذه المعطيات تتيح الفرصة لمن يهمه الأمر لرصد سلوكيات هذه الجماعة و التعرف على أساليبها في إثارة العنف قصد التفكير في آليات الاحتواء. تلجأ سلطة الحشود إلى العنف كأسلوب للاحتجاج و إيصال الرسالة الظرفية انطلاقا من موقف طارئ. لكن في الأصل تعكس رسائل مشفرة تعبر عن عنفوان الشباب و الرغبة في مساومة سلطة الآخر للتعبير عن عدم الرضا أو الارتياح الاجتماعي.

يعتبر العنف من ضمن السلوكيات البدائية المترسبة في الأفراد و المجتمعات. كما يمكن ملاحظة ذلك جليا من خلال سلوك الحيوانات التي تلجأ إلى وضع معالم لإقليمها حتى تنذر

الدخلاء بعدم الولوج. و في حالة دخول الغرباء، فإنها تلجأ للعنف و القوة كوسيلة لرفض المنافسة أو المشاركة. لكن هذا السلوك الغريزي ما فتئ يهدد كيان المجتمعات نظرا لغياب التعقل و الحكمة و اللجوء إلى أسلوب الحوار لفك النزاعات.

بشكل عام، ظل العنف يلازم المجتمعات البدائية و المتحضرة طيلة الأزمنة الغابرة و الحاضرة. إن الحروب التي دارت رحاها عبر مختلف مناطق العالم، أتت على الأخضر و اليابس على كافة المستويات. و مازالت إلى يومنا هذا تستند الكثير من الجماعات المضطهدة و المستضعفة و حتى القوية، على العنف كعربون للمعاملة و اقتطاع الحق و اقتراف الباطل. لذا ليس غريبا أن يمتد العنف إلى جميع المستويات، بما فيها الرياضة التي جاءت لتكريس الهدف النبيل "العقل السليم في الجسم السليم". المرجعية التاريخية للرياضة كانت حافلة بأساليب العنف المباشر و أمام مرأى الجميع. إذ كانت المسارح الرومانية تشكل حلبة الصراع بين العبيد للظفر بحرياتهم. على أن تكون هذه الفرص المتاحة للنبلاء كمتنافس للطاقة البدائية الكامنة.

الأصول الاجتماعية للعنف ظاهرة فريدة من نوعها. استقطبت اهتمام الأسرة و المنظومات التعليمية لتوضيب سلوك الفرد عبر آليات التنشئة الاجتماعية و التربية على المواطنة. عموما يكمن الانطلاق من نظرية التعلم الاجتماعي (باندورا) أن العنف سلوك اجتماعي مكتسب بالتعلم بالملاحظة. إذ كثيرا ما يلجأ الكبار لمساومة سلطة الآخر بوضع حد له بمزايدة كلامية أو اللجوء على العنف المادي لوضع حد للمعتدي. و من ثمة يتعلم الصغار أسلوب المزايدة أو اللجوء إلى العنف كأسلوب للدفاع عن النفس و تحقيق المكانة. أبسط مثال تتبعي بأثر رجعي للأصول الاجتماعية للعنف، هو ظاهرة الغيرة لدى الأطفال و النساء.

بالنسبة للطفل نجاهه يتأرجح بين الإعجاب و الحقد و الكراهية لما يتمظهر أمامه طفل آخر من نفس السن يسترق منه الأضواء. عندها، يلجأ إلى الآليات النفسية الغريزية ليبحث عن حل لهذا الموقف الملغز و تجاوز صراع المعاناة.

يمر بمراحل التفكير و دون عقلانية تؤدي به إلى اللجوء على أبسط وسيلة متاحة و هي العنف. بالتالي يمارس أسلوب الاعتداء غير المبرر على الغريم أو المنافس لتبديد طاقة الحقد و الكراهية. علما أن الوصول إلى هذه النتيجة تسبقه أحداث النكوص المولد للعدوان. نفس الشيء ينطبق على فئة من النساء اللاتي يلجأن في مثل هذه الحالات من الغيرة إلى أساليب إلحاق الأذى بالمنافس. غير أن أساليب أخرى مثل السحر و الشعوذة هي في الأصل بدائل للعنف الموجه نحو الآخر للدفاع عن المكانة أو بالأحرى حماية الذات.

العنف في الملاعب و إن كان قديما عرف بالعنف الرسمي الذي ترعاه السلطة الرومانية كثيرا ما كان يستثير الحقد و الكراهية لدى فئة المتفرجين من العبيد و الأحرار. و في نفس الوقت تلازم فكرة العنف مفاهيم و مبادئ سامية مثل الأمن و السلم و الحرية و العدالة. لذا يمكن التسليم مبدئيا أن العنف شر لا بد منه و لا مفر منه إلا بوجود العقد الاجتماعي و الحق في المدينة على حد طرح (جان جاك روسو).

العنف في الملاعب لم يعد ظاهرة منعزلة ترتبط بمجريات لقاء كروي، بل أصبح يهدد الحريات العامة و الخاصة. إذ يطوق كل نهاية أسبوع فضاءات رياضية و اجتماعية و أمنية

و إعلامية. يبدأ بالعنف اللفظي بالإزعاج ثم الاعتداء العمدي على كل من يقع في مجال مسيرة الحشود إلى أن يطال الأشخاص و الممتلكات. هذا إذا سلمنا أن العنف لا يقع داخل الملاعب و المدرجات فحسب، بل أن ما يحدث خارجها له من الأهمية أكثر من الذي يحدث بداخلها.

كلمة (هوليقانز) إيرلندية تدل على اسم عائلة كانوا يقومون بالشغب وتناهض حكم التاج الملكي البريطاني.

"يقصد بها ظاهرة عنف تلاحظ على هامش الرياضة و خاصة في كرة القدم، ظهرت في بريطانيا في نهاية القرن 19. استعملت الكلمة منذ 1898 للإشارة إلى صعاليك(لندن)، بالامتداد، تستعمل للإشارة إلى الجمهور المخطر في كل ملاعب العالم". أصبحت هذه الكلمة لصيقة بكل أعمال عنف جماعي أثناء المباريات الرياضية في كرة القدم. تاريخ الكرة المستديرة حافل بمثل هذه المشاهد المروعة سواء للحضور أو من يشاهد المقابلات عن بعد. آخر الأحداث التي صدمت العالم هي ما حدث بملاعب (هيزل) في بلجيكا أثناء المقابلة النهائية بين الفريق الانجليزي و الايطالي. إذ كانت الحصيلة حوالي 39 ضحية و عدد من الجرحى. كان ذلك قبل انطلاق المقابلة و كان وراء الشغب مجموعة المشاغبين البريطانيين المعروفين بانتمائهم للجبهة الوطنية المتطرفة، فضلا عن عناصر تعززها الثقافات الفرعية مثل أصحاب الرؤوس المحلقة.

"الأصول الاجتماعية لظاهرة (الهوليقانز) تبدو رابطة سيكولوجية و وجدانية تدفعها الرغبة في التعبير بأسلوب العنف من خلال الارتباط المبالغ فيه بفريق أو بعض اللاعبين يعتبر هذا الارتباط مؤشرا نفسيا للرغبة في الانتماء و إبداء نوع من الهوية قصد تعويض تدني معين بخصوص المكانة الاجتماعية و الاقتصادية".

تتهم الفئات الاجتماعية في الأحياء الهشة أنها من ضمن العناصر التي تستثير العنف في الملاعب. في حقيقة الأمر، تلجأ مثل هذه الجماعات لاستعمال الرياضة كذريعة لتنظيم أعمال الشغب أو الاستعراض للتعبير عن استيائها تجاه وضع اجتماعي معين، يبددون طاقة العنف لإلحاق الأذى بالآخر، كونهم لا يعرفون مصدر المتسبب في معاناتهم، بالتالي يختارون عشوائيا كباش الفدى لأشياء غليل تهميشهم الاجتماعي.

تعرف هذه الجماعات الفرعية، بالجماعات الجانحة و المنحرفة بأفكارها المبدئية التي تؤطر أعمال العنف. تنزوي في الرغبة في الانتماء و مقاومة الفراغ الانتقالي من مرحلة الشباب إلى مرحلة الرشد. يدخلون في مرحلة استعراضية بينية تستهدف الآخر للتعبير عن المنافسة و بناء الهوية. من بين العوامل التي تستثير هذه الشحنة هي عوامل نفسية اجتماعية تشوبها الرغبة في التعبير و بث رسائلهم إلى الآخر دون تحديد المتهم. " فهي إذن مؤشر لهشاشة النظام الاجتماعي أو قطيعة بعض الأفراد مع العادات و القواعد المعتادة في التبادل الاجتماعي(دوركاييم، الانتحار 1897)

عموما، تلجأ التفسيرات السطحية للعنف المرافق للرياضة إلى الحتمية الاجتماعية التي تنتظر إلى الأحداث أنها نوع من الجنوح و الانحراف، بمعنى " الخروج عن الأعراف والقوانين الاجتماعية السائدة و الإقدام على تجاوزها على حد تحليل (Becker, the outsiders, 1963)

بمعنى أن أصل الانحراف اجتماعي، و أن الشخص المنحرف هو ذلك الذي نجحنا في إسناد علامة الانحراف له. لكن الشأن يختلف في ظاهرة العنف في الملاعب إذ يتجاوز الأمر الحتمية الاجتماعية ليلقي ظلالة على الحتمية السيكولوجية.

في الجزائر، فإن الظاهرة لا تختلف عن باقي أنحاء العالم. إذ أرتبط العنف في الملاعب بجملة المثيرات التي تتفاعل لتنظيم هذه اللعبة لشعبية يأتي التنافس للظفر بالبطولة أو الكأس أو البقاء أو الصعود كمن ضمن العوامل التي تشحذ المناصرين و حتى المتفرجين للجوء إلى العنف للتعبير عن الاستياء أو عدم الرضا. لكن كثيرا ما تتحول هذه الممارسات إلى مشادان بينية و تمتد إلى عناصر الأمن و تطل الممتلكات العامة. تنشط هذه الأحداث جماعات فرعية تختار لنفسها أسماء للتعبير عن الانتماء و التضامن و إبداء الاستعراض نماذج منها معروفة مثل (السنافر)(الكواسر)(الشناوة). هذه الجماعات تقطن أحياء شعبية تننفس كرة القدم كل نهاية أسبوع. تعزز أفعال الشغب بممارسات غير أخلاقية مثل تعاطي المخدرات و تناول المهلوسات، بحيث يقدم هؤلاء على أفعال العنف دون أدنى تقدير للمخاطر أو العواقب.

آخر الأحداث المروعة هي تلك التي اجتاحت مدينة (وهران) في صائفة 2008 / 2009 بعد ثبوت سقوط المولودية الوهرانية(الحمراوة) على القسم الوطني الثاني. كان ذلك القطرة التي أفاضت الكأس. إذ أقدم الشباب على حرق المدينة و تكسير الممتلكات العامة لمدة ثلاثة أيام متتالية تطلب تجنيد قوات الأمن و حرمان المواطن من الحق في المدينة... مهما يكن، ارتبطت أحداث الشغب بالكرة أو غير ذلك، كل ما في الأمر أن الحقيقة و الواقع يتجاوز المطلب المعلن، بل هناك رسائل مشفرة تستدعي تحليلها و فتحها و فهمها لتصل إلى من يهمة الأمر للاستجابة على المطالب المخفية.

من هنا نأتي إلى محاولة فهم سيكولوجية الحشد التي ظلت مهمشة من طرف القائمين على الشأن الرياضي. هؤلاء سينتدون على المرجعية السيكولوجية بمغازلة مفهوم واحد هو التحضير النفسي. أصبح هذا المفهوم عملة متداولة بين الرياضيين و المدربين لتبرير التفوق أو الإخفاق. لكن معرفة الأسباب المحيطة بالبيئة الرياضية، مثل العنف في الملاعب، لم يشر أحدا أن هناك حشود تؤطرها سيكولوجية متميزة جديرة بالفهم. فأسقطت هذه الكلمة من قاموس المتعاملين في الرياضة.

المقولة التي نريدها لاستثارة اهتمامات القائمين على الشأن الرياضي هي "إن ما يحدث خارج الملاعب الرياضية، له من الأهمية أكثر مما يحدث بداخلها " نهدف من خلال هذا، استقطاب الانتباه، بأن الحشود ظاهرة اجتماعية معقدة تحتاج على فهم دقيق على أساس الدراسات و المتابعات و الملاحظات لمنشأ تكون الجماعات و تلاشيها و تماسكها في ظرف زمني قياسي دون تحضير دقيق. لذا تأتي سيكولوجية الحشد كإطار نظري يمكن فهم الظواهر الاجتماعية الظرفية ، بشكل عام، و ظاهرة العنف المرتبط بالرياضة، بشكل خاص.

أدبيات الموضوع موجودة بشكل مسهب في كتاب (قوستاف لو بون، سيكولوجية الحشد1895)، كما يزخر علم الاجتماع الانحراف بأدبيات هائلة يمكن أن تشفي غليل المهتمين بالحشود الرياضية. (لويس كوزر و آخرون 1981). كما يمكن أن يكون موضوع

ديناميات الجماعة (كورت لوين 1951) أساس نظري و إجرائي لفهم سلوك الجماعة، و الجمهور و الجمهرة و القيادة، حتى يتسنى اتخاذ الإجراءات اللازمة للوقاية و الاحتواء. على أن الأطراف (خارج اللعبة) المعنية في تقشي هذه الظاهرة تخص جميع المتواجدين في محيط مكان إجراء المقابلة و المسار الذي يقطعه الجمهور من نقاط الانطلاق على غاية نقطة الوصول ذهابا و إيابا. بمعنى أن الظاهرة تشكل فيروس متنقل شديد العدوى و الانتشار يأتي على كل ما يعترض سبيله. تجاوزات خطيرة مخلّة بالأداب العام و ممارسات عدوانية على الأشخاص و الممتلكات. أسلاك الأمن و المواطنين يقعون ضحايا هذه الجماعات المتوهجة بالهيجان و الاندفاع تعززها نزعة الانتقام و صب الغضب في الآخر عشوائيا دون شفقة أو رحمة.

كلمة (الفانداليزم) معبرة جدا عن أساليب الترهيب التي تستعملها هذه الجماعات للتعبير عن غضبها بإلحاق الأذى بالآخر. كان ذلك أسلوب الو نдал أثناء الغزوات المروعة على الشعوب، أصبح هؤلاء يعملون بمرجعية تاريخية معززة بما تنقله وسائل الإعلام سواء لوصف أعمالهم أو لنقل الاستعدادات للمواجهة. كثيرا ما أفادتنا الصحف بأن المعركة سوف تكون حامية الوطيس، أو (معركة الجزائر) لإثارة الفضول الرياضي، متناسية أنها تقوم بدعوة صريحة للعنف.

مثل هذه التصريحات، يمكن اعتبارها تحريضا و ترصدا مع سبق الإصرار من أجهزة إعلامية وجدت من أجل توجيه و صقل الرأي العام نحو الأفضل و ليس الأردل. أما الأطراف الموجودة (داخل اللعبة) و التي قد تكون من الأسباب التي تستثير العنف الرياضي تقع ضمن جملة من المثيرات منها. طبيعة الجمهور و المناصرين في المدرجات، حكام المباراة ، أعوان الأمن ، اللاعبين ، المدربين و أحداث فرعية يمكن أن تشكل صورتها شرارة الانطلاق أو ذريعة البداية في شحذ الحشود لتنفيذ خطة موجودة سلفا في أذهان بعض المناصرين الذين يتقلدون الدور القيادي الظرفي في ظل العوامل التي تستثير الهيجان. من هنا نجد أن الأصل في الظاهرة هو فعل سيكولوجي يحتاج فهمه من خلال أدبيات الموضوع.

سيكولوجية الحشد :

يتحرك الحشد بموجب أفكار مسبقة تتحول إلى أحاسيس تتحين فرص التعبير و البحث عن مواطن التنفيس وسط الجماهير الحاشدة. تتميز الحشود بروح خاصة تذوب فيها آليات التفكير و التعقل و تفسح المجال لاستجابات و جذانية انتقائية تعتمد الأحداث الطارئة و الظرفية بشكل تتداعى فيه الأفكار و الصور لتؤول إلى موضوع يجدون فيه متنفسا للتعبير عن شحنة مخزنة توجه نحو الآخر دون تمييز. يسيطر عليها المنطق الجماعي الموجه من طرف القائد على أساس الاتصال الحميمي المحرض بناء على اختيار الموقف المناسب المثير للغضب و العدوان و ذلك بشحذ العواطف. عدم قدرة الحشد للنقد يجرده من أية محاولة لتجنب التوجيهات.

تسيطر عليها الحياة الافتراضية، فهم غير مرتبطين بالواقع و لا يقدرّون عقبات أعمالهم. يتأثرون بحدث، ظرف، أو صورة تستثير فيهم روح جماعية قتالية تضامنية تستهدف رفع المعاناة التي ، و في اعتقادهم، أنها مساس بوجودهم المسلوب.

على هذا الأساس، فإن معرفة مواصفات و أفكار الحشد يعني التمكن من فن التحكم فيهم. تقع الحشود ضحية الإشاعة المغرضة. تتعزز الإشاعة بقوة الإيحاء. تستثار بنوع من الشعارات الهوجاء و بكلمات ذات دلالة معنوية، حسية، شعورية تذكرهم بتجارب مؤلمة تبعث فيهم روح الانتقام الفوري و صب الغضب في الموضوع المتماثل في الزمان و المكان. لذا لا يمكن اعتبار العنف في الملاعب أو خارجها عنفا مرتبطا بالرياضة أكثر مما هو عنف اجتماعي مقنع.

يتصرف الفرد في الحشد بموجب الصدفة و الإثارة يتأثر الحشد بكل المثيرات التي تحيط بالموقف الذي يتواجد فيه يكفي أن تتوفر شرارة واحدة لكي يشتعل لهيب الحشد. التصرف لا يستند إلى مصادر معرفية، بل حسية و وجدانية تستثير فيهم الرغبة في التعبير عن الذات لإرضاء الجماعة، كما تتسم بالتضحية و البطولة و الإيثار، لأنها كثير ما تهدأ الأمور و يعود نفس الأشخاص المحرضين إلى ضالتهم إلى مرجعية القيم و رفع الظلم.

التطرف الذي يميز الحشد يوقعه في هلوسة جماعية تقود أفعاله إلى التخريب و الأذى دون تقدير عواقب الموقف. تتوسع قوى الإيحاء و التأثير بدءا من الاقتراح إلى العدوى التي تصيب الجماعة.

يتحرر الأفراد من نزواتهم، إذ تأوي كل الأصناف الاجتماعية لتجعل منهم قوة عظمى، عابرة.

الحشد مفهوم يراد به التعبير عن جماعة غير منظمة تنشأ نتيجة الصدفة و لأغراض غير واضحة يمكن لتنظيمات عشوائية أن تكون سابقة لمنشأ الحشد مثل الجماعة، الجماعة الفرعية، الجماهرة و الجمهور. لكل منها خصوصيات من حيث المنشأ، التماسك، الاستمرار و التلاشي. أهم عنصر فعال يساهم في تفعيل دينامية الجماعة هو عامل القيادة و الإطار السيكولوجي الذي تتمظهر من خلاله فضلا عن ذلك، فإن تواجد الحشد في فضاء مميز في الشارع و الفضاءات العامة و الملاعب، خارج كل المعايير و القواعد، يمنحه الفرصة للتصرف بشكل متوحش لتحقيق أهدافه الظرفية.

سيكولوجية الحشد تميزها سلفا الهوية التي يتقمصها الأفراد التي يشكلونها. يتشكل الحشد من فئة الشباب، في مقتبل العمر. طاقة زائدة و فياضة، طموح يتجاوز الإمكانيات و رغبة ملحة في الاستعراض و الإعلاء يختار الشباب فرق رياضية تمثل الإقليم أو الألوان أو رموز رياضية بمثابة نماذج جديرة بالتقمص. كل هذه العوامل ما هي إلا إسقاطات لطموح يتأرجح بين الواقع و المستقبل يدمج الإمكانيات بالقصور أو الرغبة في التفوق. بمعنى أن وراء كل حشد ملامح سيكولوجية لأفراد يرغبون في توكيد الذات عن طريق الآخر. مهما تكن الخلفية السيكولوجية للأفراد المكونة للحشد، فإنه لا يمكن اعتمادها كمعايير لنمو الجمهور، بل ننظر إليها كقابليات و استعدادات للذوبان و الانصياح في المزاج العام.

المزاج العام للحشد :

يجب أن ننظر على الحشد كسيكولوجية لمزاج عام. المنطلق الأول هو كون الشباب يجدون لأنفسهم لعبة كرة القدم لتقاسم الهموم و المتاعب و المباهج حتى لا نجحف اللعبة

الشعبية، فإنها تشكل أعراس نهاية الأسبوع. يجد فيها الغالبية العظمى من المناصرين فضاءاً للترويح عن النفس و الانفلات من الواقع لفترة معينة. يأتي هؤلاء و هم يحملون أفكار مسبقة منها الانتصار و الهزيمة فضلاً عن هموم شخصية و اجتماعية تداعب الأحاسيس. تتحول هذه الأفكار ، مع مرور الوقت، إلى أحاسيس تحرك الوجدان. و ما أن يتوفر شرط من شروط الاستثارة إلا و تتحول الوجدانات إلى دوافع لا تجد أمامها سوى النزعة التدميرية التي تستوعبها بالتالي ، فإن اللجوء إلى العنف للتعبير، ما هو إلا طاقة كامنة تتحين مواطن التنفيس. و كون باقي الفضاوات الاجتماعية لا تتيح فرص التجمهر و التضامن و الاختفاء وراء سلطة الحشد فإن فضاوات الملاعب و ما يحيط بها في المسار تصبح ملكية ظرفية لسلطة الحشد لمساومة سلطة الآخر أو اختياره ككبش فداء لدفع فاتورة متاعبه الحسية، الشعورية و الوجدانية.

سيكولوجية الحشد لا تستند إلى أية مرجعية يسودها التفكير و التعقل، و إنما إلى أحاسيس و نزوات عابرة تحركها طاقة كامنة و ترسبات يبحث لها عن مواطن التنفيس. الإحساس بالتهميش، فقدان قيمة الذات ، اليأس و عدم الثقة في المستقبل كلها أمثلة يمكن اعتبارها عوامل تشحذ دافعية العنف و نزعة التهديم. يلجأ هؤلاء على العنف تحت ضغوط معينة تولد فيهم الإثارة و شحنة الأقدام على الفعل في ظل إدراك مشوش. هذه الأحاسيس ليست وليد الظروف الطارئة، فهي معاناة يحملها كل واحد في ملمحه الفردي. و إنما طبيعة المواقف و الإثارة و دعوات العنف هي المحركة للخمائر المنشطة لأفعال العنف.

"النزوات المحركة لفعل العنف هي أحاسيس متسلسلة تجد الموقف المناسب للاستثارة، يكفي أن تتوفر صورة أو حدث، حتى يقع التعميم الذي يستوعب الحس العام بالتالي يصبح كل فرد أسير للتوجه العام المبني على شحذ الهمم يحدث ذلك تبعاً لقوة الكلمة المعبرة عن الهموم بتلفظها شخص معين سرعان ما يتحول إلى قائد يوجه الغضب العام. مثلاً كلمة "حقرة" في المجتمع الجزائري لها من الدلالة اللغوية و النفسية و الاجتماعية ما يؤهلها لاستثارة غضب العقلاء. كما أن كلمة "رجلة" و "الذيف" كلها عبارات تحرك السكون و توقظ الجبناء...

على هذا الأساس، يمكن التسليم بوجود أشخاص داخل مكون الحشد ممن هم يتمتعون بقوة الكلمة و اختيارها تزامناً مع الصور و المواقف المعول عليها لإثارة فتنة العنف في ظل الجو الحميمي التضامني الذي يخضع و فقط لمعايير الإحساس المرفه. حتى نجرد سيكولوجية الحشد من الأساس العقلاني يمكن اعتبار ملمحها العام بما يسمى بالروح الجماعية.

معنى الروح الجماعية :

إذا سلمنا أن الحشود تفتقد إلى المرجعية العقلانية، فإن هشاشتها و عدم ضمان إستمراريتها و تحين فرص تكوينها؛ كلها عوامل ترجح أسلوب المباغثة و التردد لشحذ الهمم. و عليه ، فإن الاستجابات الطبيعية و البدائية التي يبديها ضحايا الحشود، لا تعطيههم أية فرصة في التفكير بالمنطق الفردي. بل تجرهم إلى منطق الأغلبية و السواد. و كما و شأن في المنظور الاجتماعي المعزز بالتفكير الساذج " إذا عمت خفت" أو " مبدأ السواء يحدد بالأغلبية" فإن هؤلاء ينصاعون مع القطيع أو السرب.

يشكل الحشد جماعة مرجعية ظرفية تصقلها قوة النزوات و الشعور و الهيجان و فقدان مراقبة الذات. في ظل هذا التحول السيكولوجي السريع، يفقد الأفراد آليات التعقل و التحكم

و المراقبة لأنهم لا يملكون وقتا كافيا لمعالجة موقف طارئ و يستدعي الاستجابة الفورية... من هنا و لا مناص أن ينصاع الجميع في روح الجماعة و ما تمليه موجة الخضوع و الاستسلام و الإذعان. على ذكر الإذعان و هو نقيض الوعي، بمعنى أن الروح الجماعية تفقد أفرادها الوعي بالذات و المخاطر المحدقة بها بالموازاة تشكل قوة الجماعة درعا واقيا من قوى المواجهة أو مساومة سلطتها. إذ ينمو الشعور بالتفوق ، و يتلاشى الخوف و تتبدد الشكوك. هنا يتستر كل فرد وراء الروح الجماعية التي تفرق المسؤولية الفردية و تتيح إمكانية التنصل منها بذريعة توزعها على الجميع بالتالي يتبدد شعور الفعل الإجرامي كونه يأخذ طابعا معنويا في علاقة مع روح الجماعة. كما تظهر روح الأقدام بدلا من الأحجام و روح التضحية بدلا من الاستسلام. بهذه الكيفية تساهم الروح الجماعية في شحذ طاقات كامنة معززة بنزوات مكبوتة توجه بشكل يفك قيودها لتنتهي بنزعة تدميرية تختار الموضوع المتاح للتعبير عنها قبل فوات الفرصة السانحة.

صورة و حيوية الحشد :

المرجعية السلوكية لدى الحشد هي أساس كل تصرف. إذ تكمن في قوة العضلات بدلا من قوة العقل. كما تكون هذه المرجعية السلوكية نابعة من أحاسيس كامنة ترغب في التعبير بأية وسيلة متاحة، كل ما في الأمر هو تحقيق إشباع لنزوة غير معلنة و تبديد لطاقة غير مبررة. لذا يميز السلوك العشوائي الطائش لتصرفات الأشخاص التي تذوب في سيكولوجية الحشد. المواصفات الأساسية التي تميز الملمح الجماعي للحشد هي ما يلي: الخضوع، الاستسلام، عدم الاهتمام، التضحية بالذات، الرغبة في القصاص. هذه القيم تذوب الشخصية الفردية في هيجان جماعي إلى غاية الوحدة العقلية لجميع العناصر المكونة للحشد لدرجة أنهم يتصرفون كرجل واحد. انغماس الوعي الفردي في الهذيان الجماعي تحت تأثير التوجيهات و التعليمات التي تشوبها العواطف و الحواس المرهفة. روح الحشد تميزها الروح الجماعية التي تتيح الفرصة لبعض الأحاسيس و النزوات للتعبير عن طريق الفعل العنيف. من هنا نستخلص أن الحشد تقوده الإثارة المستوحاة من اللاشعور. يقع الأفراد ضحية تصرفات تبعا للصدفة و الهيجان. تستجيب لكل ما هو خارجي كونها رهينة غرائزها المكبوتة يتأرجح السلوك بين التطرف البطولي و الإيثار و نصره المظلوم. عدم الاستقرار و التوازن الوجداني يرشح الحشد أن يكون مولعا بالحوادث الطارئة و يستجيب لها فوريا. لا تعترف بالقيود و الموانع، بحيث تحثها الرغبة الملحة للإشباع إلى محاولة رفع التحدي و تحقيق ما يمكن تحقيقه كعربون للنصر أو الفوز. تتعزز بإعدادها لتبني شعور التفوق و تشحذ عناصرها بقوة لا تطاق في المقاومة، أي قوة القهر بدلا من الاستسلام. تتبدد أمامها إمكانية المستحيل و يصبح الهدف سهل المنال و قابل للظفر به. هذه القوة الخارقة و المستوحاة من الطاقة البدائية، تجعل الحشد سريع التأثير بالإشاعة و لديه قابلية الانصياع. يتخطى مراحل الخوف و يعلو إلى عتبة الهستيريا الجماعية نتيجة العدوى التي تمس الجميع. إن حدة النزوات المحركة لسلوك الحشد و توقعات العقاب المبدد في الجماعة و عدم وفرة الوقت لتحليل عواقب الموقف، و الالتزام الذي شكله القوة العامة؛

كلها معطيات تساهم في تطوير التفكير و تفتح فرص الهستيريا الجماعية التي تفقد الأفراد العلاقة مع الواقع و تبقيهم متشبثين بالهدف إلى حين تحقيقه أو تبدد الحلم.

في ظل هذه المعطيات التي تشخص بشكل عابر بعض العوامل الكامنة وراء السلوك العدواني لدى الأفراد المكونة للحشد جدير بالاهتمام أن تولى العناية الكافية لفئات الشباب التي تنتظر نهاية الأسبوع لكي تعبر عن طاقة كامنة.

ضرورة تكثيف الجهود على أساس التعاون بين المتخصصين و من يعنى بشأن الرياضة لمزيد من الفهم لاحتواء الموقف بأساليب بديلة للمواجهة أو الردع. تسخير الإمكانيات التكنولوجية لرصد تطور و نمو الحشد. التحسيس بخطورة الموقف لأجل التقليل من ضغط الموقف. تدريب أسلاك مواجهة الشغب على أساس المعرفة. تذليل الصعوبات التي تستثير مثل هذه الظواهر. إضفاء عنصر الترفيه و المتعة على اللعبة الشعبية(كرة القدم).

المراجع :

Psychologie de la foule,Gustave le bon,1895

Violence sociale en Algerie,medhar slimane,sned,1995

Sociological theories,lewis coser,Reinhart publishers,1981